أبو الأسود الدؤلي
إمام النحاة ورأس الطبقة الأولى من علماء البصرة

كان إمامَ النحو ، ورأسَ الطبقةِ الأولى من عُلماءِ البصرة ، وله فضلُ التقدمِ على سائرِ النُّحاة فى كل مكان ، وزمان ، وجيل .

وهو من سَاداتِ التابعين ووُجوههم ، وفُقهائهم ، ومُحدّثيهم .

ولاّه الإمامُ علىٌّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - البصرةَ فى خلافته ، وشهد موقعةَ صفِّين ، فلما جاء الأُمويون عَزَلُوه من ولايةِ البصرة ، لكنهم لم يُنكِروا فضلَه ، فاستفادوا بعلمه ومواهبه فى «ضبطِ المصحف» ووضع الشكل للحروف الهجائية .

والمشهور أنه «أول من وضع علم النحو» بتوجيه من الإمام على ، ثم تلقّاهُ عنه تلاميذه من النُّحاة .

وكان - رحمه الله - حاضرَ البديهة ، سريعَ الجواب، فارسًا شُجاعًا ، وفقيهًا مُحَدّثًا ، ثقةً فى حديثه وروايته ، مما يَدُلُّ على عبقريةٍ فَذَّةٍ ، وعَقْلٍ راجح .

وهو شاعرٌ مُجيد ، ويقول الجاحظ :

«كان خطيبًا عالمًا ، جمَع شدّةَ العقلِ ، وصوابَ الرأى ، وجودَة اللسانِ ، وقول الشعر ، والظَّرْف» .

ويقول أيضا :

«أبو الأسود معدودٌ فى طبقاتٍ من الناس ، وهو فى كلٍّ منها مقدّمٌ ، مأثورٌ عنه الفضلُ فى جميعها ، كان معدودًا فى التابعين ، والفُقهاءِ ، والشّعراءِ ، والمحدِّثين ، والأشرافِ ،

والفُرسَان ، والأُمراء ، والدُّهاةِ ، والنحويين ، والحاضرِى الجواب، والبُخلاء!

وقد عمل أبو الأسود للخلفاء الثلاثة : عمرَ ، وعثمانَ ، وعلىٍّ رضى الله عنهم جميعا .

وفضلُ أبى الأسودِ على «اللغة العربيّة» بوضعه «علم النحو» - يُذْكرُ فيُشكرُ ، ويقول المدائنى : إن زيادًا أمره أن يَنْقُطَ المصاحفَ ، فنَقَطَها ، وكانت الحروف بلا نُقَط ، فتعال إلى «أبى الأسود» إمام النحاة ، ورأس الطبقة الأولى من علماء البصرة .

أولُ من وضع النحو

قيل : إن عَلِيًا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وضع له :

«الكلامُ كلُّه ثلاثة أَضْرب : اسم ، وفعل ، وحرف» ثم دفعه إليه ، وقال له : تَمِّم على هذا .

وإنما سُمّى النحوُ «نحوا» لأن أبا الأسود قال : استأذنت «علىَّ بنَ أبى طالب» - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أن أضع نحوَ ما وَضع ، فقال : انْحُ هذا النحو ! ، فسمى لذلك نحوا .

وحكى ولده «أبو حرب» قال : أول باب وضع أبى «باب التعجب» .

وقيل : إنه دخل بيته ، فقالت له إحدى بناته :

يا أبتِ ، ما أحسنُ السماء . فقال : يابنية ، نجومُها . فقالت له : إنى لم أرد : أىّ شىء منها أحسن ؟ إنما تعجبتُ من حسنها ، فقال : إذا تعجبتِ يابُنَيتى فافتحى فمك ، وقولى : ما أحسنَ السماءَ!

وقيل لأبى الأسود : من أين لك هذا العلم ؟ «يعنون النحو» فقال : لُقِّنت حُدُودَه من على رضي الله عنه .

وقيل : إنه كان يعلم أولاد «زياد بن أبيه» ، وهو والى العراقين[1] يومئذ ، فجاءه يوما ، وقال له :

أصلح الله الأمير ! إنى أرى العرب قد خالطت هذه الأعاجم ، وتغيرت ألسنتهم ، أفَتَأذَنُ لى أن أضعَ للعرب ما يعرفون ، أو يُقيمونَ به كلامهم ؟

قال : لا .

قال : فجاء رجل إلى زياد ، وقال :

أصلحَ اللّهُ الأمير ، توفى «أبانا» وترك «بنون» [2]!، فقال زياد : ادعوا لى أبا الأسود ، فلما حضر قال : ضع للناس الذى نهيتُك أن تضعَ لهم .

وقيل : إن أبا الأسود كان لا يُخرج شيئا أخذه عن على بن أبي طالب إلى أحد حتى بعث إليه «زياد»: أن اعمل شيئا يكون للناس إمامًا ، ويعرف به كتاب الله - عز وجلَ -فاستعفاه [3] من ذلك ، حتى سمع أبوالأسود قارئاً يقرأ ، ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة:١ - ٣] بكسر (ورسوله)[4]، بينما هى بالضم!

فقال : ما ظننت أن أمر الناس آل إلى هذا !! فرجع إلى زياد فقال : أفعلُ ما أَمَرَ به الأمير ، فليبغنى كاتبا لبقا يفعل ما

---

(١) العراقان : البصرة والكوفة .

(٢) صحة العبارة نحويا : توفي أبونا ، وترك بنين ! (٣) طلب أن يُعفيَه .

(٤) والقراءة بالكسر تؤدي إلى الكفر والعياذ بالله، فلا وجه لها إلا أن تكون معطوفة علي المشركين، وعندئذ تكون البراءة من المعطوف عليه والمعطوف . وقراءة المصحف برفع « ورسولُه» أى : ورسولُه برئ كذلك من المشركين . كما يقرأ بالنصب عطفا على اسم إن .

فأُتى بكاتب من عبد القيس فلم يرضه ، فأتى بآخر فقال له أبو الأسود :

إذا رأيتنى قد فتحت فمى بالحرف فانقط نقطة فوق ، وإن ضممت فمى فانقط بين يدى الحرف .

وإن كسرت فاجعل النقطة من تحت .

ففعل ذلك ، وكانت هذه النقاط هي الخطوة الأولى فى الشكل : (**الفتح ، والضم ، والكسر**) . وكان للخليل بعده فضل الشكل الذى نراه الآن !

أبو الأسود المعلم

كان أبو الأسود مُعَلّما ؛ فلا عجب إذا رأيناه ينصح من ينتمون إلى المهنة ، وليسوا أهلا لها ، بل هم دخلاء عليها ؛ فالمعلم ينبغى أن يكون لتلاميذه قدوةً صالحةً ، وله قصيدة ميمية يقول فيها ناصحا من واقع تجربته وخبرته :

يايّهـــا الرَّجُلُ المعَلّمُ غـــيـــرَهُ
هَلاَّ لَنفْـسِك كـــانَ ذَا التَّـــعليمُ؟!
تَصِفُ الدّواءَ لِذِى السَّقامِ وذى الضَّنى
كَـيْـمَـا يَصحَّ بِهِ ، وأَنْتَ سَـقِـيمُ!
ونَرَاك تُصْلِح بالرَّشَـادِ عُـقُـولَنَا
وأَنْتَ مِـنَ الـرَّشَـــادِ عَـــديمُ
فـهُنَاك يُسْـمَعُ مـا تقـولُ ويُهْـتَـدَى
بالقَـوْلِ مِنْك ، ويَنْفَعُ التَّـعْليمُ
لاَ تَـنْـه عَـنْ خُـلُقٍ وتَـأْتـىَ مِـــثْـلَـهُ
عَـــارٌ عليكَ-إذا فـــعلت - عظيمُ!

فإلى الدخلاء على «المهنة السامية» .. وإلى الذين يُسيئون إليها ، ولايعرفون لها حقها وفضلها ، نقدم هذه النصيحة المضيئة نصيحة مجرب يغار على المهنة .

أبو الأسود وغلام يَتَقَعَّر فى كلامه!

روى أن غلاما كان يتقعر[1] فى كلامه ، أتى أبا الأسود ، يلتمس ما عنده من العلم ، فقال له أبوالأسود : ما فعل أبوك ؟

قال : أخذته الحُمّى فطَبَخَتْه طبْخًا ، وفضختْه فَضْخًا ، وفنخته فنخًا [2] ، فتركته فَرْخًا !

فقال أبو الأسود :

وما فعلت امرأته التى كانت تجارّه ، وتُشَارّه ، وتزارّه ، وتهارّه[3]؟

قال : طلقها ، فتزوجت غيره ، فرضيت ، وحَظِيَت، وبَظِيَت [4]؟

فقال أبو الأسود : قد عرفنا «حَظِيت» فما بَظِيتْ؟

قال الفتى : حرف من الغريب لم يبلُغْكَ .

قال أبو الأسود : يابن أخى ، كل حرف من الغريب لم يبلغ عمَّك فاستره كما تستر السِّنّور [5] خُرْءَها (فضلاتها) .

---

(١) يتعمق ويأتي بالكلام الغريب غير المستعمل .

(٢) فضخته : كسرته ، والفنخ : استرخاء المفاصل.

(٣) تشاره «تفاعل» من الشر ، وتجارّه : تجر عليه جريرة .وتزاره : من المزارة وهي العَضّ ، وتهاره : تهر في وجهه كما يهر الكلب ، وتماره : تلتوي عليه وتخالفه.

(٤) قال في اللسان : حظيت المرأة عند زوجها وبظيت إتباع له وليس فى الكلام بظي.

(٥) السنور : القط .

العلم والمال

يقول شاعرنا المصرى :

بالعِلْم والمالِ يبنى النّاسُ مُلْكَهُمُ

لم يُبْنَ مُلكٌ على جهلٍ وإقلالِ

وصحيح أن بناء المُلك ، وقيام النهضات يتوقف على العلم والمال ، ولكن إذا خُيّرنا بين أحدهما فأيهما نختار؟

إن أبا الأسود يتناول قضية «العلم والمال» فى شعره ، فيُؤْثر العلم ، ويوُصى بطلبه قائلا :

العِلْم ذُخْرٌ ، وكَنْزٌ لا نَفَادَ له

نعمَ القرينُ ، ونِعمْ الخِدْن [1] إنْ صَحِبَا

قد يجمعُ المالَ شَخْصٌ ، ثم يُحْرَمُه

عَمّا قليلٍ ، فيَلْقَى الذّلّ والحرَبَا [2]

يا جامعَ العِلْمِ ، نِعْم الذُّخْرُ تَجمعُه

لا تعدلَنّ به دُرًّا ، ولا ذهبا !

وتمر الأيام والأعوام ، ولا يزال العلم ذُخراً وكنزاً لانفادَ له . إنه مفتاح التقدم ، والرقى ، والتفوق !

خير البرق

من أجود شعر أبى الأسود الدّؤلى تلك الأبيات التى يستديم فيها صلةً انقطعت ، ويطلبُ استعادة الإكرام فما أشد القطيعة بعد الوصل ، والإهانة بعد الإكرام ، إنه يقول :

---

(١) الخدن -بكسر الخاء : الصديق والرفيق .

(٢) الحرب : بفتح الراء : الهلاك .

ليتَ شِعْـرِي عن أمـيـرى مـا الذى
غـالـهُ فى الوُدّ حـتى ودّعَـه؟! [1]
لا تُهِنّى بَعْـدَ إذْ أكْـرَمْـتَنى
فـشـديدُ عـادَةٌ منتـزعَـهْ
لايَكُنْ بَرْقُك برقًـا خُلّبًـا
إنّ خـيْـرَ البَـرق مـا الغَـيثُ مَـعَـه [2]

هو وابنه

كان ابنه «أَبُو حَرْب» قد لَزِمَ منزلَ أبيه بالبصرة لا ينتجع [3] أرضا ، ولا يطلب رزقاً فى تجارة ولا غيرها!

فعاتبه أبوه على ذلك ، فقال أبو حرب .

إن كان لى رزق فسيأتينى!

فقال أبو الأسود :

ومـا طَلَبُ المعـيـشـة بالتّـمَنّى
ولـكـن أَلْـقِ دَلْـوَك فـى الـدّلاء
تَجِـئْك بِملْئـهـا يَوْمـاً ، ويومـاً
تَجِـئْك بحـمـأة [4]، وقليلِ مَـاءِ

---

(١) ليت شعري : ليتني أعلم السر الذي جعل أميرى يقطع الود . وغاله في الود : اغتال الود وقضى عليه وأهلكه حتى لم يعد له وجود .

(٢) البرق الخُلب: الذي لا غيث فيه ولا مطر يحيي الآمال ، فهو خادع ، فهو يومض حتى تطمع بمطره ، ثم يخلفك !

(٣) انتجع الأرض : خرج لطلب المرعى ، والبحث عن القوت والرزق .

(٤) الحمأة: الطين . وعلى المرء أن يسعى وليس عليه أن تتم المطالب .

فى العلاقات العامة والخاصة

● يقول لابنه ، ولكل الأبناء :

لا تُرسِلَنّ رسـالةً مـشـهـورةً

لا تستطيع - إذا مضت - إدراكَها

أكْرِمْ صديق أبيك حيثُ لقيتَه.

واحْبُ الكرامةَ مَن بَدَا فَحَباكَها [1]

لا تُبدِيَنّ نميمةً حُدِّثتَها

وتحفَّظَنّ من الذى أنْباكَها

● والبيت الذى يردده الجميع :

والعَبْدُ يُقْرَع بالعَصَا

والحُرّ تكفيه المقالةْ

هو لأبى الأسود ، وكفى به خبيرا بفن المعاملة !

● أصدقاء الأبناء :

وكان لأبى الأسود رأى ، فى صداقات الأبناء ومن رأيه ، أن لا يسرف الأبناء فى صداقتهم أو عداوتهم.

● وكان «لابنه أبى حرب» صديق -غير مرغوب فيه - يكثر زيارته فقدم أبوه النصيحة له قائلا :

أحْبِبْ إذا أحببت حُبًا مُقَارِبًا

فإنك لا تدرى : متى أنت نازع [2] ؟!

(١) احب : أعط وامنح ، وبادله احتراما باحترام .

(٢) المقاربة : الاعتدال ، والوسط بين الحب والقطيعة مثلا . ونازع : مقاطع ومخاصم .

وابغضْ إذا أبغضت بُغضا مُقَارِبًا

فإنك لا تدرى : متى أنت راجع ؟!

وكن مَعْدِنًا للحِلْم واصفَحْ عن الخنَا[1]

فإنك راءٍ ما عملت ، وسامعُ

● وكان له جار يؤذيه ، وقدم إليه النصح مرارًا وتكرارً فلم يُقلع عما هو فيه ، فباع داره ، فقيل له : أبعت دارك ؟

قال : لم أبع دارى ، وإنما بعت جوارى .

هو وابنتُه ليلةَ البِناء[2]

قال شيخ العلم ، وفقيه الناس ، وصاحب على ، وخليفة عبد الله بن عباس على البصرة أبو الأسود الدؤلى لابنته ليلة البِنَاء بها .

أَىْ بُنَيّة !

النساءُ كنّ بوصيتك وتأديبك أحقَّ منى ، ولكن لابد مما لابدّ منه !

يا بنية ! إن أطيبَ الطّيبِ الماء ، وأحسنَ الحُسنِ الدُّهْن[3] ، وأحلى الحلاوة الكُحْل!

يا بنية ، لا تُكْثرى مباشرة زوجك فيملّك ، ولا تباعدى فيجفُوَك ، ويثقل عليك ، وكونى كما قَلت لأمك :

خذى العفو منّى تستديمى مودّتى

ولا تَنْطِقِى ، فى سَوْرَتِى[4] حينَ أغضَبُ

---

(١) الخنا : الفحش ، والأذى .

(٢) البناء : الزواج ، حيث يبني بها زوجها ويؤسسان بيتا .

(٣) ما ترطب به البشرة وتغذى وتطيب .

(٤) السورة ـ بالسين ـ الهياج ، وشدة الغضب وحدّته ، ومعناها قريب من معنى الثورة بالثاء .

فـإنى رأيت الحُبّ فى الصّـدر والأَذَى

إذا اجـتـمـعـا لم يلبث الحُبُّ يذهبُ !

ألا ليت البنات والزوجات يعملن بهذه النصيحة أملا في حياة موفقة سعيدة !!

رحلات أبى الأسود

مَن يتُابعْ تاريخَ أبى الأسود ، ومراحلَ حياته يبدو له أنه ولد فى مكة ، ثم رحَل فى خلافة عمرَ - رضي الله عنه - إلى البَصرة ليتّخذَها دارَ إقامةٍ له بعد مكة المكرمة ! إلى أن لقىَ ربّه عندما امتحنت البصرة سنة ٦٩ هـ بطاعون اجتاحها على مدى ثلاثة أيام ، ومضى أبو الأسود فى هذا الطاعون إلى ربه ، وكان قد أصيب قبله بالفالج «شلل نصفى» .

وأول رحلة له كانت إلى «المدينة المنورة» فى خلافة عمر - رضي الله عنه - ، وهى رحلة لم تكن للتجارة ، وإنما كانت للدراسة والتخرج ، وإن شئت فقل : هى رحلة الإعداد والتوجيه لحياته المستقبلة ، راجعَ فيها القرآن على أهله ، وروى الحديث عن أصحاب الحديث ، وتفقه فى الدين ، ولقى الكثيرين من الصحابة ، و«أصحاب الحل والعقد» مما كان له أكبر الأثر فى تكوين شخصيته ، ونمو مداركه ، وإعداده لمستقبل حافل بالعطاء ، والمشاركة فى الحياة العامة بنصيب موفور .

ويذكر الرواة أنه رحل إلى الكوفة ، ثم إلى دمشق أيام حكم معاوية .

وعندما كان كبيرا أراد القيام برحلة إلى فارس ، فرغبت إليه ابنتهُ أن يُرجئ الرحلةَ إلى ما بعد الشتاء إشفاقا عليه ، ورحمة به حيث قالت له :

يا أبت ، إنك قد كبرت ، وهذا صميم الشتاء ، فانتظر حتى ينصرمَ [1] . فإنى أخشى عليك ، ولكنه هوّن الأمرَ عليها ، وقال لها ولغيرها :

إذا كُنْتَ مَعْنيًا بأمرٍ تُريدُه
فما للمَضاءِ والتّوكُّل مِن مِثْلِ
تَوكّل ، وحَمّل أمَرك اللهَ إنّ مَا
تُرادُ به آتيك ، فاقنع بذى الفضلِ

الحمد لله الذى كفاناك !

كان أبو الأسود بعيد النظر فى السياسة ، يقول الشعبى :

لله دَرّ أبى الأسود ! ما كان أعفّ أطرافه ، وأحضرَ جوابه ، دخل على معاوية فقال له :

أكنت ذُكِرتَ للحكومة ؟! «التحكيم بينه وبين على»

قال : نعم .

قال : فما كنت صانعا ؟

قال : كنت أجمع ألفًا من المهاجرين وأبنائهم ، وألفا من الأنصار وأبنائهم ، ثم أقول :

يا معشر من حضر ؛ أرَجُلٌ من المهاجرين أحق بالخلافة ، أم رجل من الطُّلَقاء [2] ؟

فلعنه معاوية ، وقال : الحمد لله الذى كفاناك [3] .

---

(١) ينصرم : ينقضى ، وينتهى .

(٢) أولئك الذين أسلموا أخيراً بعد فتح مكة ، وقال لهم النبى ﷺ اذهبوا فأنتم الطلقاء ، وكان أبو سفيان والد معاوية زعيمهم ، وعلى رأسهم .

(٣) أى : أغنانا عن رأيك ومشورتك .

بخل أبى الأسود

أهو حقيقة أم ادعاء؟!

كان أبو الأسود يُرْمَى بالبخل حتى قال أبو عبيدة : بخلاء العرب أربعة : الحُطيئة ، وحُميد الأرقط ، وأبو الأسود الدؤلى، وخالد بن صفوان .

وربما كان بخله يرجع إلى فهمه قيمة المال ، وخوفه من تقلباتِ الزمان ، وسوءِ رأيه فى الناس ، ولأن يقال عنه بخيل ، خير من أن يقال محتاج ، ولهذا كانت وصيته لأولاده فى الإمساك ، وحسن القيام على المال يقول : لا تُجاودُوا [1] الله فإنه أجود وأمجد ، وإنه لوشاء أن يوسع على الناس كلِّهم حتى لا يكونَ فيهم محتاج لفعل ، فلا تُجهدوا أنفسكم فى التوسعة ، فتهلكوا هزلا [2] .

ويقول : لو أطعنا المساكين فى أموالنا لكنا أسوأ حالا منهم ، وينسبون لأبى الأسود نوادر فى البخل ، وربما كان لونا من الحرص على ما ينفعه ، ويغنيه عن سؤال اللئيم !

ومع هذا ، فسوف أقدم لك ما يحكى عن بخله لترى رأيك !

أبو الأسود وإحداهن !

وقفت عليه امرأة ، وهو فى فُسطاط [3] ، وبين يديه طبق فيه تمر ، فقالت : السلام !

فقال : كلمة مقبولة !

---

(١) لا تباروه في الجود والكرم فهو الذي يعطي بغير حساب .

(٢) ضعفا.

(٣) فسطاط : خيمة .

من يُعَشّى الجائع ؟

قال الأصمعى : مَرَّ رجلٌ بأبى الأسود الدؤلى ، وهو يقول : من يُعَشّى الجائع ؟

فقال أبو الأسود : عَلىَّ به [1]؛ فأتاه بعَشاءٍ كثير ، وقال له : كُل حتى تشبعَ !

فلما أكل ذهب ليخرج ، قال له : أين تريد ؟

قال : أريد أهلى !

قال : لا أَدَعُكَ تُؤْذى المسلمين الليلةَ بسؤالك ، ثم أمرَ به فَوُضعت رِجْلاه فى القيد حتى الصباح ، وعندئذ فك قيدَه ، وأطلق سراَحه ، وقال له : إياك أن تقترب من هذا المكان !

أليس هذا مما ينبغى أن نواجه به الذين يسألون الناس إلحافاً ، وهم قادرون على العمل ؟!

أبو الأسود وأحدهم !

ووقف عليه أعرابى ، وهو يأكل ، فقال الأعرابى : أَأَدخُل ؟

قال أبو الأسود : وراءَك أوسَعُ لك .

قال : الرَّمضاء «رمال الصحراء الساخنة» أحرقت رجلىّ !

قال : بُلّ عليهما يبردان !

قال : أتأذن لى أن آكل معك ؟

قال : سيأتيك ماقُدِّر لك .

قال : تا للّه ما رأيت رجلا ألأم منك !

---

(١) أحضروه ، وأقبلُوا علىّ به .

قال : بلى ، قد رأيت إلا أنك نسيت !

ثم أقبل أبو الأسود يأكل حتى لم يبق فى الطبق إلا تميرات يسيرة ، نبذها له ، فوقعت منها تمرة ، فأخذها الأعرابى ومسحها بكسائه ، فقال أبوالأسود :

يا هذا ، إن الذى تمسحها به أقذر من الذى تمسحها له !

قال : كرهتُ أن أدعها للشيطان !

قال : لا والله ، ما كنت لتدعها مهما كانت منزلته!

لقمان الحكيم !!

كان لأبى الأسود مكان عالٍ مرتفع عن الأرض إلى قدر صدر الرجل أمام بيته ، يجلسُ عليهِ ، ويوضع عليه الخُوان بين يديه على قدر ذلك المكان ، فإذا مر به أحدهم ، فدعاه إلى طعامه ، لم يجد ما يجلس عليه ، فينصرف .

وذات يوم أقبل عليه فتى ، فدعاه إلى طعامه ، فأقبل الفتى وتناول الخوان ، ووضعه أسفل وجلس يأكل ، ونظر إلى أبى الأسود ، وقال له :

إن عزمت على الغداء فانزل وكل معى !

وظل أبو الأسود ينظر إليه ، والغلام يلتهم الطعام حتى أتى على الطعام ، وأبو الأسود مكانه ، فقال له فى غيظ :

ما اسمك يا فتى ؟

قال الفتى : أنا لقمان الحكيم ! فقال أبو الأسود : لقد أصاب أهلك حين سموك «لُقْماناً» [1] إنه اسم على مُسَمّى !

---

(١) يريد أبو الأسود أنه سريع التقام الطعام فهو : لُقمان !

من أجوبته المسكتة

● لولا أنك بخيل...

قال له رجل : أنت - والله - ظَرْفُ [1] ظَرْفٍ ، وظَرْفُ علمٍ ، ووعاء حِلْمٍ غير أنك بخيل !

فقال : وما خير ظرف لا يُمْسِكُ ما فيه ؟!

● لولا أنك كبرت

قال له زياد : لولا أنك قد كبرت لاستَعَنّا بك ، قال : إن كنت تريدنى للصراع ، فليس عندى ، وإن كنت تَريد رأيى وعقلى فهما أوفرُ ما كانا .

● أمر الله !

ومرض يوما ، فقيل له : هو أمر الله !

فقال : ذاك أشد[2] له .

● الطريق الطريق

وكان مرة ماشيا فى الطريق ، فمر به رجل راكب ، فصاح به الطريق الطريق !

فقال أبو الأسود : عن الطريق تعدلنى [3]؟

وجهة نظر

كان أبو الأسود قد أسَنّ وأصابه الفالج «شلل نصفى» ، وكان - مع ذلك - يركب إلى المسجد والسوق ، ويزور أصدقاءه ،

(١) الظرف : الوعاء ، وهو أيضا : الذكاء ، وحسن الكلام ، والبلاغة والكياسة .

(٢) لأن أمر الله نافذ ، ولاحيلة فى دفعه ورفعه .

(٣) الطريق لى ولك ، فكيف تطلب منى أن أعدل عن الطريق لك ؟

فقال له رجل :

يا أبا الأسود أراك تكثر الركوبَ ، وقد ضعفت عن الحركة، وكبرت !

ولو لزمتَ منزلكَ كان أحسنَ لك !

فقال له أبو الأسود : صدقت ، ولكن الركوب يَشُدّ أعضائى ، وأسمعُ من أخبار الناس مالم أسمعه فى بيتى ، وأستنشق الريح ، وألقَى إخوانى [1] !

ولو جلست فى بيتى لاغْتَمّ بى أهلى ، وأنِسَ بى الصبىّ ، واجترأ على الخادمُ ، وكلّمنى من أهلى مَن يَهاب كلامى ، لإلْفِهم إياىَ ، وجلوسهم عندى ، حتى لعل العَنْزَاتِ [2] تبول علىّ فلا يقول لها أحد : هُسّ [3].

تجربة تنتهى بالطلاق

كان يجلس إلى فناء امرأة بالبصرة فيتحدث إليها، وكانت جميلة ، فقالت له : يا أبا الأسود : هل لك أن أتَزَوّجك ؛ فإنى صَناع [4] الكَفّ ، حسنة التدبير ، قانعة بالميسور ؟

قال : نعم .

فجمعت أهلها فتزوجته ، فوجد عندها خلافَ ما قَدّر ، وأسرعت فى ماله ، ومدت يدها إلى خيانته ، وأفشت سِرّه ، فغدا على كل من حضر تزويجه إيّاها، فسألهم أن يجتمعوا عنده ففعلوا ، فقال لهم :

---

(١) وياله من علاج نفسى للذين يُقعدهم المرض

(٢) جمع عنزة ، هي أنثى الجدي !

(٣) هُس : ـ بضم الهاء وسكون السين ـ اسم صوت لزجر الغنم ، وفى كتب النحو مجموعة من أسماء الأصوات .

(٤) امرأة صناع : ماهرة مدبرة تجيد العمل بيديها .

أَرَيْتَ امـــــــــراً كنتُ لم أَبْلُه

أتانى ، فقال : اتّخذْنى خليلا [1]

فخالَلْتُه ثم أكرمتُه

فلم أستفد من لَدُنْه فتيلا [2]

وأَلْفَيْتُه حين جربتُه

كَذُوبَ الحديثِ سَرُوقا بخيلا [3]

فذكّرتُه ثم عاتَبتُه

عِتَاباً رقيقا ، وقولا جميلا

فألفيته غير مُسْتَعْتِبٍ

ولا ذاكرِ اللهَ إلا قليلا [4]

أَلَسْتُ حقيقاً بتوديعه

وإتباع ذلك صَرْماً طويلا [5]

قالوا : بلى والله يا أبا الأسود !

قال : تلكم صاحبتكم ، وقد طلقتها لكم ، وأنا أحب أن أستُرَ ما أنكرتُه من أمرها ، فانصرفت معهم !

أظرف حوادثه مع نسائه

كان بينه وبين إحداهن كلام فى ابن كان لها منه ، وأراد أخذه منها ، فاختصما إلى زياد بالبصرة، فقالت المرأة : أصلح الله الأمير !

---

(١) أريت : أي أرأيت ، ولم أبله : لم أختبره . وخليلا : صديقا .

(٢) خاللته : اتخذته خليلا ، والفتيل رمز للشئ القليل وهو الخيط الذي في شق النواة ، يقال : ما أغنى عنه فتيلا أي : شيئا .

(٣) ألفيته : وجدته ، سروقا : كثير السرقة .

(٤) استعتبه : استرضاه ، وأرضاه .

(٥) حقيقا : جديرا ، والصرم – بفتح الصاد – الترك والقطيعة .

هذا ابنى كان بطنى وعاءَه ، وحجرى فِناءَه ، وثديى سِقاءَه ، أكلؤُه [1] إذا نام ، وأحفظهُ إذا قام ، فلم يزل كذلك سبعة أعوام، حتى استوفى فِصاله ، وكملت خصاله ، واشتدت أوصالُه ، وأمّلت نفعَه ، ورجَوْت دَفْعَه ، أراد أن يأخذه منى ، فقوّنى أيها الأمير ، فقد رام قهرى ، وأراد قَسرى !

فقال أبو الأسود : هذا ابنى حملتُه قبلَ أن تحمله، ووضعتُه قبل أن تضعه ، وأنا أقوم عليه فى أدبه ، وأنظرُ فى أوَده ، وأمنحه علمى ، وألهمه حلمى حتى يكمل عقلُه ، ويستحكم فَتْلُه .

فقالت المرأة : صدق - أصلحك الله - حَملَه خفًا وحملتُه ثِقلا ، ووضعه شهوةً ، ووضعته كُرْهًا .

فقال زياد : أُردد على المرأة ولدَهَا فهى أحق به منك ، ودعنى من سجعك .

نصيحة للذين يجلبون الهلاك لأنفسهم بأيديهم !

نظم أبو الأسود تلك القصة التى تحدثنا عن صيد لم يجد صائده ما يذبحه به ، فبحث الصيد بأظلافه [2] ، فوقعَ على شَفْرة ، فذبحه الصائد ، ومن هنا كان المثل : «كالباحث عن حَتفه بظُلْفه» ، يقول أبو الأسود :

فلا تَكُ مثلَ التى استخرجت

بأظلافها مُدْيَةً [3] ، أوْبفيها

---

(١) أرعاه وأسهر على راحته .

(٢) الأظلاف : جمع ظلف - بضم الظاء - الظفر المشقوق للبقرة ، والشاة ، والظبى ، ونحوها .

(٣) مُدْية : شفرة أو سكين .

فـــقـــام إليـــهـــا بهـــا ذابحٌ

ومَنْ تدعُ يومـاً شَـعُـوبَ يَجِـيـهـا [1]

وتوفى أبو الأسود بالبصرة سنة تسع وستين ، وعمره خمس وثمانون سنة .

وقيل لأبى الأسود عند الموت : أبشر بالمغفرة!

فقال : وأين الحياء مما كانت له المغفرة؟!

(٣)شعوب : الموت . ويجيها ، يجيئوها فخففت الهمزة . والمعنى من يطلب الموت ويستدعيه فإنه لا شك يأتيه !